- قضايا ثقافية معاصرة-المحاضرة الثالثة عشر
- تأخر المسلمين وسبيل النهوض بهم

- **تمهيد:**

- ظلت الأمة الإسلامية متماسكة البناء الحضاري
- **لم يتحقق هذا إلا بفضل ذلك المنهج الحضاري الشامل**
- لم يترك صغيرة ولا كبيرة **مما يحتاجه الإنسان في مسيرته الحضارية إلا هيأه ووفره .**
- **ما هو قابل للاجتهاد بواسطة العقل،** وضع له الضوابط الدقيقة التي تعصم العقل من الزيغ في حركته الاجتهادية
- **بذلك وصلت الأمة الإسلامية قمة الازدهار وقمة العطاء ...**
- **لكن أتى عليها حين من الدهر، وجدت نفسها وقد ولى عنها ذلك المجد الزاهي،** فرجعت القهقرى، وبتعبير آخر **تخلفت وتأخرت،** وحلت بها الأزمة.
- **فما هي الأسباب التي كانت وراء التخلف؟ وكيف السبيل إلى البعث الحضاري من جديد؟**

1. مفهوم التخلف:

- **لغة:جاء في لسان العرب لابن منظور (مادة تخلف) ما يلي:** (خلف الليث: الخلف ضد قدّام (...) وجلست خلف فلان أي بعده (...) والتخلّف: التأخر. وفي حديث سعد: فخلّفنا فكنا آخر الأربع أي أخّرنا ولم يُقدمنا، والحديث الآخر: حتى إن الطائر ليمر بجنباتهم فما يخلفهم أي يتقدم عليهم ويتركهم وراءه، ومنه الحديث: (استووا ولا تختلفوا فتختلف قلوبكم) (أخرجه مسلم)،
- أي إذا تقدم بعضهم على بعض في الصفوف تأثرت قلوبهم، ونشأ بينهم الخلف،وفي الحديث: (لتسُونَّ صُفوفَكم أو ليخالفنَّ الله بين وجوهكم)
- يريد أن كلاً منهم يصرف وجهه عن الآخر ويوقع بينهم التباغض، فإن إقبال الوجه على الوجه من أثر المودة والإلفة.

2. متخلفون عن ماذا؟

- **اصطلاحاً:**إن مفهوم التخلف يتضمن أو يفترض وجود نموذج يجسد التقدم وآخر متخلف عنه، فمشيت خلف فلان يعني أنني تخلفت عنه، وتخلفت عن الركب يعني أن تخلفي يقاس بالموقع الذي يحتله ذلك الركب في المسار الذي يفترض السير فيه .
- من هذا المنطلق نجد كثيرًا من الكتاب والباحثين الذين أثاروا قضية تخلف المجتمع المسلم، يرون أن هذا المجتمع متخلف بالنسبة للمجتمع الغربي وقد خضعوا في نظرتهم تلك، للمقياس الذي أشاعه الغرب للتقدم والتخلف، وهو اعتبار نموذجه ممثلاً للتقدم،
- **واعتبار نماذج بلدان آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية نماذج التخلف،**
- لم يقصر ذلك على الجوانب التقنية والعلمية والصناعية ومستويات المعيشة، وإنما مدها إلى القيم والأخلاق ومكونات الشخصية،
- اعتبر نموذجه معيار التقدم وأخذ يقيس عليه النماذج الأخرى، التي ستعتبر متخلفة بالضرورة ما دامت وحدة القياس هي النموذج الغربي)

- الواقع أننا عندما نحكم على أمة بالتخلف،
- لابد لنا من مقياس نستند إليه في ذلك الحكم، ولكن الذي ينبغي أن ينعقد عليه يقيننا،
- **أن ذلك المقياس ليس هو إطلاقًا نموذج الغرب وحضارته المادية،**
- **إنما هو النموذج الإسلامي المتكامل الذي تجسد على أرض الواقع .**
- **السبب في ذلك واضح، وهو أن النموذج الغربي قد قام على أساس مادي صرف وعلى رؤية مبتورة لمفهوم التقدم مشتقة من رؤيته للكون والحياة والإنسان...**
- **هي رؤية لا تحتل منها القيم الأخلاقية والفضائل التي تسمو بحياة الإنسان وتميزه عن الحيوان حيزًا يذكر.**

- من هنا، وجب تحرير عقول المسلمين من ذلك الاقتران الخطير الذي درجت على استساغته،
- وهو الاقتران بين التقدم ومجتمع الغرب، غافلين كل الغفلة،
- عن أن ذلك الطراز من التقدم إذا وضع في ميزان الإسلام، سيكون مصيره الرفض،
- لأنه يهتم بإشباع حاجات الإنسان المادية، ويخنق فيه حاجاته الروحية،
- هو في النتيجة والمآل سينعكف على منتوجاته المادية ويدمرها تدميرًا، في غياب الحصن الأخلاقي الذي يحمي مكاسب الإنسان الحضارية ويصونها من الفساد.
- إننا لا نتردد لحظة في **وصمها بوصمة التخلف،** لأنها بعيدة بأوضاعها وأجوائها عن الوضع الذي ينبغي أن يكون عليه الإنسان
- **.فبينما وتائر الإنتاج المادي في تصاعد،**
- إذ بالإنسان يمعن في الارتكاس حتى وصل إلى هذه الصورة البائسة التي نراه عليها اليوم من تمزق وانحلال وعبثية عمياء.

- إننا نصف الأمة الإسلامية بالتخلف ونحن على يقين أن من أهم أسباب تخلفها الجري وراء نموذج الغرب، ومحاولة الاقتداء به والسير في ركابه ورؤية الحياة كما يراها هو، والاصطباغ بصبغته المادية التي حولت الإنسان إلى بهيمة سائمة، بل أضل سبيلاً .

- **ما هي مظاهر التخلف؟**

-للتخلف في العالم الإسلامي مظاهر عديدة تشمل مختلف أبعاد الحياة؛ مثل:

ا ـ التخلف الاقتصادي

ب ـ التخلف الاجتماعي

ج ـ التخلف الثقافي والفكري

د ـ التخلف السياسي

هـ ـ التخلف العلمي والتقني.

- **جهود الخروج من التخلف؟**

- **ففي الوثائق نجد أن كل مصلح قد وصف الوضع الراهن تبعاً لرأيه أو مزاجه أو مهنته.**
- فهناك من رأى أن الأزمة سياسية تحتاج حلاً سياسيًا، فركز كل جهوده في التغيير والإصلاح السياسي، وانتقاد فساد الحكم، ومحاولة تغيير أنظمة الحكم في البلاد الإسلامية.
- **هناك من رأى أنها أزمة أخلاقية تستلزم حلاً أخلاقيًا،**
- **هناك من رأى أنها أزمة عقدية تستلزم إصلاح العقيدة**
- **على حين أن كل هذا التشخيص لا يتناول في الحقيقة المرض بل يتحدث عن أعراضه**
- **نتج عن هذا أنهم منذ مائة عام لا يعالجون المرض ، وإنما يعالجون الأعراض**

- **أسباب التخلف (التأخر)**

- **أسباب داخلية أساسية:**
- المرض كامن في نفس المسلم، وفي ثقافته الموروثة من زمن الانحطاط، كما هو كامن في سلوك المسلم وتصرفاته اليومية، وفي قلبه وعقله.. والأزمة تكمن في الأدران العالقة بالمسلم من تراث الانحطاط عبر القرون
- **سبب خارجي ثانوي:المعامل الاستعماري الذي يستغل ضعفنا وقابليتنا للاستعمار**

- **المريض نفسه يريد - ومنذ مائة عام - أن يبرأ من آلام كثيرة : من الاستعمار ونتائجه ، من الأمية بأشكالها ، من الفقر رغم غنى البلاد بالمادة الأولية ، من الظلم والقهر والاستعباد، .**
- ليس في الواقع سوى طريقتين لوضع نهاية لهذه الحالة المرضية ، فإما القضاء على المرض وإما إعدام المريض .
- لكن هناك **من له مصلحة في استمرار هذه الحالة المرضية سواءً أكان ممن هم في الخارج أو ممن يمثلونهم في الداخل.** .

- **إن نهضة المسلمين تحتاج منا أن نعمل على إزالة معوقات النهضة من جهة، وصياغة مشروع نهضة من جهة أخرى.**
- **أولا: معوقات النهضة:**
- هناك معوقات ذاتية ومعوقات موضوعية؛
- فأما الذاتية فهي نابعة من ذاتنا الحضارية بفعل ما أصاب المسلمين من أمراض تصيب المجتمعات والحضارات، وهي سنة الله في خلقه لا يمكن أن تحابينا لأننا مسلمون،
- **بل يصاب بها كل من لم يتحقق بشروط التحصين منها.** وهي معوقات اجتماعية ونفسية وفكرية.
- أما المعوقات الموضوعية فهي العوامل الخارجية لتخلفنا وتأخرنا، وهي أساسا الهيمنة الحضارية الغربية وما جلبت علينا من مختلف التحديات بداية بالاستعمار ونهاية بالعولمة والغزو الفكري والحضاري.
- **ثانيا: صياغة مشروع للنهضة الحضارية.**

• معوقات النهضة:المعوقات الذاتية(اجتماعية ونفسية وفكرية)

أ. المعوقات الاجتماعية:

1-**الحرفية في الثقافة**: **الجهل المركب الذي يتميز به المثقف العربي يشكل مرضا مزمنا ومعديا** ومتوارثا بين الأجيال.

2. **تحلل شبكة العلاقات الاجتماعية**: **تمزق البناء الاجتماعي للأمة, وسيادة النزعة الفردية في المجتمع مما يؤدي إلى انعكاس معيار القيم,** وتعارض مصالح الأفراد والجماعات فيما بينها, **فيحدث الاصطدام الداخلي الذي يقضي على العمل التكاملي الجاد .**

3-**عدم تماسك عالم الأفكار**: أمّا **الأفكار السائدة في العالم الإسلامي اليوم فما هي إلاّ مزيج من الأفكار التي تعيق التطور والنمو وتتمثل في الأفكار الميتة والأفكار القاتلة.**

4-**طغيان عالم الأشياء**: إن **طبيعة العلاقة بين الإنسان المسلم اليوم وعالم الأشياء يحددها المعيار الصبياني في التعلق بالأشياء.**

5- **طغيان عالم الأشخاص**: كما **أن الجماهير في مجتمعنا لم تعد تؤمن بمشاريع فكرية معينة**, بل كل **ما يشد انتباهها هو ذلك الشخص الكارزمي الذي يعتقدون أنه يمتلك جميع الحلول لمشكلاتهم** الخاصة, إلى درجة أن يتحول شخص الزعيم إلى وثن يعبد إمّا خوفا وإمّا انبهارا وإمّا طمعا.

6.سيادة النزعة السياسوية: **انحراف الممارسة السياسية في الوطن العربي، بحيث انفصلت السياسة عن القواعد والأسس العلمية التي تقوم عليها وتحولت إلى خداع ومكر وتضليل** يمارسه بعض الدجالين لمغالطة أصحاب النوايا الطيبة والسذج من الجماهير، واستخدام جماجم الضعفاء كجسر للوصول إلى السلطة أو البقاء فيها.

ب. معوقات نفسية:

1-**غياب الفعالية**: **يتميز تفكير الإنسان المسلم اليوم في معظمه بأنه تفكير نظري غير مرتبط بأهداف عملية, وأغلب من يسمون أنفسهم بدعاة التغيير يكثرون الكلام** من دون أن يكون لذلك أي انعكاس ايجابي على الواقع .

2-**الميل إلى التكديس**: لجوء المجتمع الإسلامي إلى التكديس بدل البناء, فطغيان الشيئية أعمى بصيرته وجعله يغفل عن البناء المرحلي التكاملي.

3- **القابلية الاستعمار**: فالقابلية للاستعمار إنّما تعني تلك الحالة النفسية السلبية المتمثلة في الرضا بالعدو والاستسلام للهوان والعجز عن مواجهة تحديات الواقع ومشكلاته.

ج. معوقات فكرية

-1النزعة الذرية (التجزيئية): إن أسباب كبوة المشاريع النهضوية ترجع إلى تلك الانطلاقة غير الموفقة التي لا تقوم على الرؤية التكاملية العميقة، لعل هذه النظرة التي تفصل المشكلات عن بعضها وتجزئها هي سبب ذلك الفشل المتكرر لمحاولاتنا النهضوية .

2- **غياب النقد الذاتي**: قد يكون سبب هذا الرفض هو التهرب من تحمل مسؤوليات نتائج الانحرافات التي تحدث بين الحين والآخر في مسيرته النهضوية، **بحيث أنه يتم اللجوء إلى اتهام الآخر أحيانا واتهام التراث في أحايين أخرى لتبرير العجز أو الخطأ** في مقابل الحذر المفرط من توجيه جهاز النقد والفحص للذات.

3-**غياب الوعي المنهجي** : **العشوائية في العمل، فبالرغم من وجود النية الخالصة للقيام بالتغيير،** إلاّ أنّها ليست الشرط الوحيد. بل **نحتاج إلى المعرفة الواسعة بسنن التغيير الاجتماعي**.ا.

4- **الاغتراب الزماني والمكاني**: **اتفاق كل من دعاة الإصلاح ودعاة التحديث على تجاهل واقع أمتهم كنقطة انطلاق أساسي لبناء مشروعيهما النهضويين،** فعاد دعاة الإصلاح بأفكارهم إلى الماضي للتشبث به والدفاع عنه من دون تمحيص ولا نقد، وتمثل دعاة التحديث مذاهب فكرية غربية لها واقعها الخاص الذي نشأت فيه. وبالتالي فهذا الاغتراب الزماني والمكاني هو الذي أدى إلى التلفيق والفوضى أحيانا وإلى اصطدام الجهود أحايين أخرى مما عرقل السير في طريق النهوض.

- **المعوقات الموضوعية (الحضارة الغربية)**

- **في مقابل هذه الأمراض الداخلية التي ظلت تنخر جسد الأمة فكريا ونفسيا واجتماعيا**, نجد حاجزا خارجيا يتمثل في الاستعمار (الحضارة الغربية) الذي يرفض أن يتحول العبد إلى سيد يتخذ قراراته بكل حرية ومسؤولية،
- يرفض تعدد أقطاب الحضارة الإنسانية ومراكزها، كل هذا يدفعه لإجهاض أي مشروع نهضوي أو تحرري يحاول تحقيقه المستضعفون .
- **وهناك مجموعة من الأدوات والآليات التي يوظفها الغرب كقيود وحواجز تمنعنا من تحقيق أهدافنا الإنسانية والحضارية ونذكر منها:**

1. العمل على اختراق مختلف المبادرات التي يهدف أصحابها لتغيير أوضاعهم وأحوالهم،
2- تسخير إمكانيات مادية كبيرة وإمكانيات بشرية عالية المستوى للاستعلام عن حركة الأفكار **للتخلص منها إمّا بتشويشها والانحراف بها إذا كانت فعالة وإمّا بتضخيمها** .
3- توظيف الاستشراق في عملية الصراع الفكري لارتباطه بمؤسسات الاستعلامات التابعة للاستعمار.
4- اهتمام الغرب بالبعثات الطلابية للانحراف بها عن طريق طلب العلم لتعود بالشهادة الأكاديمية **ولكن من دون زاد علمي ومعرفي،**.
5- تحطيم قدرات الإنسان المسلم من خلال الانحراف بسلوكاته إلى ميدان الوقاحة والرذيلة **وذلك من خلال محاربة القيم الأخلاقية بمختلف الطرق وتشجيع دعاة الانحلال بأسماء مختلفة،**
6- تشجيع التعصب للأنا سواء كأفراد أو كجماعة، **لينقسم المجتمع إلى فريقين متناحرين فريق يتخذ من الغرب ملهما له فيستسلم له خاضعا مستكينا ويرفع ألوية الدفاع عنه، وفريق ثان يجعل من الغرب شيطانا بليدا** فيظل يواجهه بانفعال متزايد، **والواقع أن الفريقين من صنع مخابر الصراع** لأن ما يؤول إليه نشاطهما في النهاية هو النتيجة نفسها، .
7- تأثير الغرب مرتبط بجانبين، جانب سلبي وجانب إيجابي، **فأمّا الأول فيتمثل في خططه ومؤامراته لتحطيم الأفكار الفعالة والعملية وتفكيكها، وأما الثاني فيتمثل في خلق أفكار مناسبة له ولمصالحه،** ويسعى لنشرها لتصبح جزءا من يوميات أبناء الشعوب الإسلامية.

- **ما هو سبيل النهوض بالمسلمين؟**
- **لا بد من الخروج من النزعة الانفعالية التي تتجاهل الحاضر تجاهلا تاما بسبب الانبهار بمنجزات الغير.**
- لابد من بناء مشروع للنهضة قائما على التحليل العلمي والعقلاني لظاهرة التخلف الحضاري الذي تعيشه الأمة،
- **انطلاقا من خصوصيات هذه المرحلة، نحدد الخصائص النفسية والفكرية والاجتماعية لإنسانها؛ والتي تتمثل في أهم المعوقات الذاتية التي وقفت في وجه المحاولات النهضوية ومنعتها من تحقيق أهدافها الحضارية.**
- **- نقوم بتفكيك معوقات النهضة وبناء مشروع جديد بناء على تحليل لمظاهر وأسباب التخلف وصياغة رؤية كلية تستوعب مختلف أبعاد النهضة،** ونصمم منهجا قابلا للتطبيق نظريا وعمليا يحقق أهدافنا من النهضة.

1. **الإنسان: محور عملية النهضة**: **إن المشروع الإصلاحي يبدأ بتغيير الإنسان** ، ثم بتعليمه الإنخراط في الجماعة ثم بالتنظيم فالنقد البناء.

- وتبدأ عملية التطور من الإنسان لأنه المخلوق الوحيد القادر على قيادة حركة البناء، وتحقيق قفزات نوعية، تمهيداً لظهور الحضارة.
- **ولكي تعود (المجتمعات) من جديد إلى ساحة الفعل الحضاري لابد من أن تعيد صياغة هذا الإنسان وتوجيهه عبر:**

-توجيه الثقافة. - توجيه العمل. - توجيه رأس المال.

- وهي الأمور التي يمكن من خلالها للإنسان أن يؤثّر في واقعه (أي أنه يؤثر بفكره وعمله وماله).
- **لتحقيق التغيير لابدّ من تغييرين، تغيير ما بالقوم** (الوضع الاجتماعي)، **وتغيير ما بالأنفس**. وما يؤكد على هذا القول هو قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

2-**من التكديس إلى البناء :** إن العالم الإسلامي بدأ يتّجه إلى جمع الأكوام من المنتجات الحضارية أكثر من اتجاهه إلى بناء حضارة **وهو ما يسمى بالتكديس** .

- ينتهي بنا الأمر إلى **ما أسماه مالك بن نبي بالحضارة الشيئية.**
- **أي أن التكديس لا يعني البناء لأن البناء وحده هو الذي يأتي بالحضارة التي تكون منتجاتها وليست المنتجات هي التي تكون الحضارة .**
- **يقول مالك: "إن علينا أن نأخذ من الحضارة الغربية الأدوات التي تلزم في بناء حضارتنا... حتى يأتي يوم نستطيع فيه الاستغناء عنها بمنتجاتنا."**

3-دور الأفكار في البناء الحضاري :

- **فالفكر ركيزة هامة في حياة الشعوب، ودليل على حيويتها وتقدمها،** أو على العكس دليل على جمودها وتخلفها، لأن نتاج العقل البشري الذي خلقه الله لهذه الغاية فالنجاح الفكري وسيلة للقضاء على الأفكار الميتة لأن "تصفينة الأفكار الميتة وتنقية الأفكار المميتة يعدان الأساس الأول لأية نهضة حقة."
- **وكذلك فإن انحراف الأفكار عن مجرها بالنسبة للأفكار الجوهرية تبين لنا مقدرا عدم فعالية المجتمع** مما يؤدي إلى الزيغ من جيل إلى جيل عن طريق الامتصاص وتعتبر الأفكار في هذه الحالة هي الجراثيم التي تكون كالعدوى الاجتماعية لنقل الأمراض ..

4-**ثقافة النهضة وثقافة التخلف**:

- **ما دامت الثقافة هي ذلك المحيط الذي يشكّل فيه الفرد طباعه وشخصيته وسلوكه،** فإنّ أنماط الشخصية والسلوك الإنساني هي تجسيد واقعي لما يلقاه الفرد في بيئته الاجتماعية .
- لنقرّب الصورة أكثر ونحوّر المثال الذي دلّل به ابن نبي على وظيفة الثقافة عندما شبهها بوظيفة الدم الذي يغذي جسم الإنسان،
- **الثقافة في مراحل تخلف المجتمعات تتولّد في نطاقها السلبيات وتتراكم مع الزمن لتحمل في طياتها أفكاراً قاتلة أو ميتة يمتصها جسم المجتمع،** فتقضي على فعاليته وعلى تحضّره وتقوده عند نهاية دورة حضارته إلى التخلف والانحطاط.
- **على هذا الأساس تبرز العناية بالمسألة الثقافية،**
- هي المدخل الضروري لعملية البناء الحضاري.
- **لكي يحقق المجتمع تألّقه في التاريخ، ويقضي على ضروب التخلف واللافعالية،** ينبغي أن نغيّر عالمه الثقافي،
- **أن نضع الإنسان أمام ضرورات جديدة تفضي إلى تغيير معادلته الشخصية التي زيّفتها عهود الكساد، وهذا هو رهان الثقافة الأساسي**
- **هو التحدي الذي يقف أمام المجتمع الإسلامي فيستدعيه إلى ضرورة التفكير في الإنسان الذي ينبغي إعادة صياغته ثقافياً حتى يتواءم مع ضرورات التحضر**
- لأنه من أجل أن نغيّر الإنسان ينبغي أن نغير وسطه الثقافي بإنشاء وسط جديد يمنحه المسوّغات الدافعة والفعالية القصوى حتى ينطلق في **عملية البناء الحضاري**.